

## مستقبل الشرق الادنى

يظن البعض ان الشرقيين عاجزون عن ادارة امورهم بايديهم لانهم يرون ما في بلدانهم المختلفة من الضعف والوهن وتضعف القوى . ولكننا اذا بحثنا في تاريخهم القديم وجدنا ان هذا الضعف طارئ عليهم وانهم لم يكونوا كذلك في غير الازمان . واذا قسمناهم بنهرهم من ام الارض وعلمنا ان الاسباب المشابهة تنتج نتائج متشابهة ترجح لنا انه لا يتعذر عليهم ان يلبوا شعبيهم ويتردوا مجددم السابق . فان الامم التي نجحها الآن مستخفة غارب المجد وراقية ذرى الفلاح لم تكن كذلك منذ بضع مئات من السنين . فامة اليابان مثلاً لم تكن ارقى من مجاورها سكان الهند والصين منذ مئة سنة وهي الآن مثل ام اوربا العظمى . ودول اوربا لم يكن لها شأن كبير منذ الف سنة وهي الآن في اوج مجدها

بينما كنا نفكر في هذه الامور وفيما قد يأرل اليه حال بلاد الشام بعد هذه الحرب وقع نظرنا على ترجمة انكليزية لكتاب ارسطوطاليس في السياسة او الحكومة تناولناها وفتحناها . ومن غريب الاتفاق ان الفصل الذي فتح امامنا كان الفصل العاشر من الكتاب الثاني وفيه وصف بجملة حكومة قرطاجنة المستعمرة السورية في شمال افريقية على ما كانت عليه في عهد ارسطوطاليس

والمعروف من تاريخ قرطاجنة انها مستعمرة من مستعمرات السوريين او الفينيقيين سكان صور وصيداء وبيروت وسائر السواحل السورية اثنائها منذ اكثر من ثلاثة آلاف سنة وعظمت مدينتها قرطاجنة حتى بلغ عدد سكانها مليون نفس اي اكثر من سكان القاهرة الآن واكثر من سكان اية مدينة كانت في اوربا ما عدا بعض العواصم كلندن وباريس . واغثت بصنائعها ومناجرتها واستولت على جانب من اوربا وناظرت ممالك اليونان والرومان ودامت الحرب بينها وبين رومية نحو الاثنتين كثيرة ولم تغلب رومية عليها الا بعد عتاش كثير . وقد وصف ارسطوطاليس حكومتها التي كان لها اليد الطولى في ترقيتها

بعد ان وصف حكومة كريت وحكومة اسبرطة فقال : -

« يظهر ان حكومة قرطاجنة قائمة على دعائم ثابتة وهي من وجوه كثيرة ارقى من غيرها فانها تشبه حكومة اسبرطة في بعض الامور . بل ان هذه الممالك الثلاث كريت واسبرطة وقرطاجنة متشابهة كثيراً في بعض الامور ومختلفة كثيراً في غيرها . ومن ام الامور التي تتمايز بها ان الشعب يشارك حكامة ومع ذلك لا يضطر ان يخرج عليهم ولا يخطون الي

استعمال الجور والظلمة . فما يشارك الفرطاجيون في الاسبرطيين ان ائدين تربطهم روابط الصداقة يجلبون حون موائد واحدة . وللفرطاجيين مجلس شورى مثل مجلس الاسبرطيين فيه ستة ذائب واربعة رم مختبون على اسنوب احكم من اسنوب الانتخاب في اسبرطة لان كل واحد من سكان اسبرطة يحق له ان ينتخب لمجلس الشورى مهما كان شأنه واما في قرطاجنة فالاعضاء ينتخبون من خامسة الشعب . والمملكتان متشابهتان من حيث الملوك ومشيرهم ولكن طريقة قرطاجنة اصحح من طريقة اسبرطة لانها تنتخب ملوكها انتخاباً ولا تختيد بانتخابهم من اسرة واحدة ولا تراعي السن في انتخابهم بل تقضون من يعمر فضله على فضل غيره . ولو كان الاول اصغر سناً من الثاني لان سلطة الملك واسعة فاذا لم يكن على جانب كبير من الفضل والسلاح فقد يفسد ضرراً كبيراً كاحداث في اسبرطة مراراً « والبيادى التي بنى الاسبرطيون دعائم حكومتهم عليها مؤلفين اياها من الارسطقراطية والديمقراطية ( اي حكومة السراة وحكومة العوام ) بعضها يميل الى الحكومة الديمقراطية وبعضها الى الحكومة الاليفركية ( اي التي يتولاها خاصة الامة او اغنيائها ) فاذا اتفق رأي الملك مع رأي مشيريوكم في امر من الامور بعد بحثهم ان يعرضوه على الجمعية العمومية او بقروء ولا يعرضوه عليها . ولكن اذا اختلف الملك ومجلس الشورى وجب عليهم ان يعرضوا الامر على الجمعية العمومية وهي تجمع ما يقوله الثريقات وتحكم فيه ولكل واحد من اعضائها ان يبدي رأيه . وعندم خمسة مشيرين واحمى السلطة ينتخب بعضهم بعضاً وينتخبون هم اعفاء مجلس الشورى ويرأسونه وهو لاد الخمسة من اعلى طبقات الشعب واغناها وهم يخدمون بلادهم مجاناً من غير اجر ولذلك جعلت الحكومة قبيل الى الاليفركية اي الحكومة التي يتولاها خاصة الاغنياء وصار هؤلاء المشيرون يربدون السراة او الحكومة الارسطقراطية بناء على رأي شاع وتسلط على النفوس وهو ان الحاكم لا يكفي ان يكون صاحب جاه بل يجب ان يكون صاحب ثروة واسعة ايضاً لانه يستحيل على من لم يكن صاحب ثروة ان يقوم بما يستدعيه سمو منصبه او ان يتفرغ لخدمة بلاده . ولما كان اختيار الحكم من اهل الثروة بمثابة جعل الحكومة الاليفركية واختيارهم من اهل الجاه بمثابة جعلها ارسطقراطية فاخذت قرطاجنة اسلوباً جامعاً بين هذين الطرفين وعليه تجري بنوع خاص في انتخاب الرجال لاعلى المناصب اي منصب الملك ومناصب قواد الجيش ولكن اذا انتخب هؤلاء من اناس ذوي ثروة ولا فضل لم اخطئ شأن المملكة لانها تصير تفضل الفتى على الفضل ويصير حب المال حصة غالبة في المدينة لأن ما يجترمه اصحاب

المناصب العالية لا يعتم ان يصير قبلة السكان بنوع عام والفرص الذي يرمون اليه . وحيث لا يضمن الاحترام الاعظم بالفضيلة لا تفلح حكومة الفضلاء لاسباب وان الاغنياء الذين يحرزون مناصبهم بالمال يحاولون ان يستفيدوا منها . واذا حمل الفقر من كان فاضلاً وجيهاً على الاكتساب بطرق غير محللة فلا يؤخذ ذلك دليلاً على ان الخروج من الفضل لا يحاول الاكتساب بطرق ولاسيما اذا اراد ان يسترد ما انتقه على اعراس المنصب . ولذلك يجب ان يكون الحكام من الذين يستطيعون ان يحفظوا مقامهم ولا يحقروه . وكان الاولى بالذين وضعوا نظام قرطاجنة ان يعينوا الاجور انكافية للاكفاء الذين يتولون المناصب العالية لكي يتفرغوا لخدمة بلادهم

« ولا يمكن بالمرء ان يتولى مناصب كثيرة في وقت واحد كما هي الحال في قرطاجنة لان من يقتصر على عمل واحد يحسنه اكثر ممن يعمل معه غيره . وهذا ظاهر في الجيش كما هو ظاهر في البحرية حيث تجد الشخص الواحد آمراً او مأموراً في وقت واحد . ولما كانت حكومة قرطاجنة مائلة الى الاوليغركية تراها تنزل الى اهل الوجاهة وتعينهم حكاماً للندن لكي يجمعوا منها ثروة فيمكنوا هذا العيب في حكومتهم . واللوم الاكبر على واضع نظام هذه المملكة فانه كان يجب عليه ان لا يبتني سبيلاً للشكوى والخروج على الحكومة اما الآن فاذا المّت بالبلاد ملته فلا يبعد ان يثور الشعب ويعصي اوامر حكامه ولا يجد الحكام من قوانين البلاد ما يردعونهم به عن العصيان

« هذا ما يستحق الذكر من مزايا حكومة اسبرطة وحكومة كريت وحكومة قرطاجنة » انتهى كلام ارسطو باختصار قليل . وظاهر منه انه يفضل نظام الحكومة في قرطاجنة على نظامها في كريت وفي اسبرطة مع ان هاتين المملكتين اي كريت واسبرطة كانتا ارقى ممالك الاوربيين في ذلك العصر . وعليه فالفينيقيون الذين استعمروا قرطاجنة وضعوا لها نظاماً كفل لها النجاح والتفوق اكثر من سبعمائة سنة عدا ما قامت عليه الادلة التاريخية من تفوق الفينيقيين في بلادهم الاصلية سواحل سورية . انظر ما قاله فيهم حزقيال النبي نحو سنة ٥٨٨ قبل المسيح واصفاً غنى صور واتساع متاجرها قال : « ايها الساكنة عند مدخل البحر تاجرة الشعوب الى جزائر كثيرة هكذا قال السيد الرب يا صور انت قلت انا كاملة الجمال . تحرمك في قلب اليوم بناؤوك تمسوا جمالك عملوا كل الواحك من سرد سنير اخذوا ارزاً من لبنان يصنعوا لك سوارى صنعوا من بلوط باشان مجاذيفك صنعوا مقاعدك من عاج مطم في البقس من جزائر كثيره كنان مطرز

من مصر هو شراعك ليكون لك ربة الامم البحرية والارجوان من جزائر اليشة كاذة  
 غطاءك - اهل ميدون وارواد كالو ملاحيك - حكاوك يا مور الذين كانوا ييك م  
 رباينك نيوخ وييل وحكاوكها كانوا فيك قلافوك - جميع سفن البحر وملاحوها كانوا ييك  
 لياجرا بيجارتك ترشيش تاجرتك بالفضة والحديد والقصدير وارضاصي - ياوان وتوبان  
 وماشك م تجارك بنفس الناس وبآية النحاس اقاموا تجارتك ومن بيت توجرمة بالغيل  
 والفرسان والبغال اقاموا اسواقك - بنوا ددان تجارك جزائر كثيرة تجار يدك ادوا هديتك فروقا  
 من الحاج والابنوس ارام تاجرتك بكثرة صنائعك تاجروا في اسواقك بالبرهان والارجوان  
 والمطرز والبوص والمرجان والياقوت - يهوذا واراض اسرائيل م تجارك تاجروا في سوقك  
 بحنة وحلاوى وعسل وزيت وبلان - دمشق تاجرتك بكثرة صنائعك وكثرة كل غني  
 يحمز طبون والصوف الايض - ودان وياوان قدموا غزلا في اسواقك - حديد مشنول  
 وسليخة وقصب التبريرة كانت في سوقك - ددان تاجرتك بطنائس للركوب - العرب وكل  
 رؤساء قيدار م تجار يدك باغرفان والكباش والاعتدة - تجار شبا ورعمة م تجارك  
 بانقر كل انواع الطيب وبكل حجر كريم والذهب اقاموا اسواقك - حران وكنة وعدن تجار  
 شبا واشور وكلد تجارك - هولاء تجارك باردية اسماجونية ومطرزة واصونة مريم - صكومة  
 بالبال مصنوعة من الارز بين بنائك - سفن ترشيش قوافلك لتجارتك فامتلات  
 وتمجدت جدا في قلب البحار - ملاحوك قد اتوا بك الى مياه كثيرة - كسرتك الريح  
 الشرقية في قلب البحار - ثروتك واسواقك وبضاعتك وملاحوك ورباينك وقلافوك  
 والمتاجرون بمتجرك وجميع رجال حربك الذين فيك وكل جمعك الذي في وسطك  
 يقطون في قلب البحار في يوم سقوطك

الامة التي استطاعت ان تبنى مثل صور وحيدنة وفرطاجنة في غير الازمان وتحكم نفسها  
 بنفسها على سلب استحق العجايب ارسطوطائيس كبير الفلاسفة الساميين وامتدت تجارتها  
 الى اقاصي البلدان الى الهند والصين شرقا والى اسبانيا وبلاد الانكليز غربا وشمالا ودارت  
 سفنها حول افريقية واستخرج رجالها اذهب من مناج الترنسفال والنحاس من مناج اسبانيا  
 والتصدير من مناج انكلترا وطاربت رومية سنين عديدة - الا يحتمل ان يستطع ابتازها  
 الآن الاستقلال بادارة امورهم اذا شاءوا وبما تعرض لهم من يقاوميه قبل ان يشهد ساعدهم